

الأدب الإسلامي

بين

المفهوم والتعريف والمصطلح

بقلم: د. سعد أبو الرضا*

هذه دعوة إلى إعادة النظر في خطابنا الأدبي والنقدي حول الأدب الإسلامي كمذهب أدبي استطاع أن يشكل ويجلي في السنوات العشر الأخيرة كثيراً من خصائصه وسماته، التي دعمتها النماذج الأدبية للمبدعين المخلصين شعراً وقصة ومسرحية ومقالة وغير ذلك من الأشكال الفنية المعتد بها.

يقترح أن يكون المصطلح «آداب الشعوب الإسلامية» وبرغم غرابة هذا الاعتراض الذي يعوزه البعد التاريخي العقائدي، لأن الأدب الإسلامي مرتبط بالإسلام ولغته

وقرآنه، الذي نزل «بلسان عربي مبين»، ومن ثم يمكننا أن نعتبر العربية لغة أولى للآداب الإسلامية، وليس معنى ذلك أننا ننكر آداب الشعوب الإسلامية الأخرى، كلا فنحن نعتد بها، ونحث الجهود على دراستها، كما ندعو إلى ترجمتها إلى اللغة العربية، كما نترجم

الأدب الإسلامي العربي إلى لغات الشعوب الإسلامية الأخرى، بذلك يمكن أن تتشكل منظومة الأدب الإسلامي شاملة آداب كل المسلمين، وقد تأصلت قيمه الإسلامية، وذلك تحت مصطلح «الأدب الإسلامي» ذلك التركيب الذي شاع بيننا، وأصبح يحمل هوية ذلك الأدب موحداً بين دعائه، بينما تركيب «آداب الشعوب الإسلامية» قد يكون مدعاة للتفرقة والتباين في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الوحدة والتوحد، مع طموحاتنا في اتساع الأدب المقارن ودراساته العميقة

وربما كانت التفرقة بين المفهوم والمصطلح مدخلاً مناسباً للحديث عن جوهر الأدب الإسلامي، فما هو الفارق بين المفهوم والمصطلح للآداب الإسلامي؟

لماذا نضيّق واسعاً ونغلق باباً ربما يكون فيه هداية لغير المسلمين؟!!

أتصور أن التحديد والجمع والمنع والحصر والمواضعة من أهم سمات المصطلح من الناحية المنطقية، بينما لا يتحقق كل ذلك في المفهوم، الذي يمكن أن يتصل بجلاء طبيعة الأدب الإسلامي وخصائصه التي بلورت مصطلحه، كما يرتبط بالكشف عن الحاجة الفكرية والأدبية إليه، والدور العقائدي المنوط به، وبيان التطورات التي أسهمت في نموه، وتوضيح علاقته بغيره من الآداب والمذاهب والأنساق المعرفية، وجلاء دوره في منظومة الفنون والمعارف الإنسانية، إلى غير ذلك من الأبعاد والقضايا التي تضيء جوانب هذا المفهوم وتفسره وتوضحه.

أما التعريف فيمكن أن يكون موجزاً بصورة تتجاوز المصطلح، وموجزاً لأبعاد

فماذا حقق الأدب الإسلامي من هذه الحدود المنطقية الثلاثة المصطلح والتعريف والمفهوم؟

بالنسبة لتركيب «الأدب الإسلامي» هل يمكن أن نعتبر ذلك التركيب مصطلحاً قد تحققت فيه المواضعة والتحديد والجمع والمنع والحصر؟

إن بعض الباحثين منا لا يزال يتعامل مع هذا التركيب ببعض الشك فيه، إذ يرى أن هذا التركيب لا يتضمن آداب شعوب إسلامية أخرى غير الأدب العربي، ومن ثم

(*) أستاذ جامعي وناقد أدبي، صدر له: «الأدب الإسلامي قضية وبناء»، والنص الأدبي للأطفال»، وهو من مطبوعات الرابطة، وغيرهما. يعمل الآن أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية معارفاً من جامعة الزقازيق.

القرآن الكريم بفصاحته وتفرد، والمتغيرات بما تزود به المبدعين من وسائل تعبيرية قادرة على الإقناع والتأثير والإمتاع، وإثراء الفكر بعيداً عن المباشرة والوعظ، وإن كان ذلك الأدب لا تفتقد فيه العبرة والموعظة.

فإذا ما انتقلنا إلى التعريف، فما أكثر التعريفات التي وضعت لذلك الأدب. لكنها جميعاً كانت قائمة على اعتبار التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان أساساً هاماً في هذا التعريف، ورغم اختلافنا فيما وراء ذلك، من هذه التعريفات مثلاً: «إن الأدب الإسلامي صياغة التجربة الحياتية صياغة جميلة معبرة موحية من خلال التصور الإسلامي لها»، حيث يمكن أن يشكل هذا الجنس الأدبي بساطته الفنية الإسلامية الخاصة شيئاً من الأدب الإسلامي.

وليس في الالتزام بالتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان تقييد لحرية الأديب، وإنما تتطلب طبيعة وجوده في الحياة كإنسان سوي أن يتعامل مع من فيها، وما فيها، وأن يتكيف معها، ثم يكون له موقف منها يتجلى في تعبيره الجميل عنها، في ضوء قيم الإسلام ومبادئه.

وإذا كنت أحبذ وحدة المصطلح، والحث على الوصول إلى ذلك وتأكيده، فإنني أدعو إلى تعدد التعريفات لأنها في نظري مشرية للأدب الإسلامي ونقده، ما دام هناك مصطلح بالمواصفات التي أشرت إليها في مطلع حديثي.

يتجاوز النسبة النحوية في «الإسلامي» إلى جعل الإسلام أكثر اتصالاً بطبيعة هذا الأدب، وأشد وضوحاً وخصوصية فيه، وبغرم وجاهة ذلك التصور أيضاً وحرصنا على دلالة لأعلى مسماه، فإنني أعتقد أن دلالة لفظة «الإسلامي» أكثر تحقيقاً لهذا الجانب، إذ تتضمن عبارة «الأدب الإسلامي» كل ما نتصوره من أدب لحمته وسداه الإسلام بقيمه ومبادئه، وتفيض منه العاطفة الدينية بتوهجها وإخلاصها، ثم إن هذا التركيب أكثر شيوعاً بيننا، وحيداً لو تجاوزنا الاختلاف حوله إلى معالجة نظريته نفسها وتأصيلها.

وما سبق يؤدي بنا إلى القول بأن الارتباط بين ركني هذا المصطلح «الأدب الإسلامي» بحاجة إلى بحوث ومناقشات،

قيم الإسلام يدعمها في نفس الإنسان التأثير بجماليات العربية

ومزيد من النماذج الدالة لبلورة هذا المسمى حتى نحقق له مزيداً من الاستقرار والجمع والمنع، وغير ذلك من شروط المصطلح المنطقية التي يوجبها العقل، وتتطلبها الدعوة إلى هذا المذهب، وقبل كل ذلك وبعده، الاعتدال في خطابنا حتى نتوجه بدعوتنا إلى القاصي والداني والعدو والصديق.

مستوى جمالي:

وإذا كان الأدب فناً تجليبه اللغة في مستواها الجمالي، فإن قيم الإسلام ومبادئه يدعمها في نفس الإنسان التأثير بجماليات هذه اللغة، تلك الجاليات التي تثيرها لغة

لكل هذه الآداب المختلفة اللغات. هذا في الوقت الذي قد يرى فيه بعض الباحثين أن الأدب العربي كله أدب إسلامي، وفي هذا الرأي المقابل لما سبق، نجد تجاوزاً في تحديد هوية المصطلح، وخطأً لأبعاده. حقاً للإسلام بقيمه ومبادئه الفضل في نشر وانتشار اللغة العربية وآدابها وعلومها، لكن ذلك ليس مسوغاً لهذا التوسع الذي قد يفقد المصطلح تحديده وجمعه ومنعه وحصره ومواضعه التي اكتسبها خلال هذه السنوات.

ركن أساسي:

إن صفة «إسلامي» وهي ركن أساسي في تركيب «الأدب الإسلامي» قد دفعت بعضاً منا إلى تصور أن ذلك الأدب الإسلامي لا يصدر ولا يقبل إلا من المسلم الملتزم بدين الإسلام، مع أن ذلك قد يكون فيه تضيق لواسع، وإغلاق لباب قد يفتح طريق الهداية إلى الإسلام لغير المسلمين، فالإسلام ما جاء إلا لهداية كل الناس، والأمثلة شاهدة على إيجابيات هذه الفكرة، وهي أن يتسع الأدب الإسلامي ليشمل كل أدب

تتحقق فيه خصائصه، دون نظر إلى من قال، لأن اعتدادنا هنا إنما يكون بما قيل، بعيداً عن الرؤية الضيقة، ولعل استيحاء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «أوغلوا فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» مهيمى لاتساع رؤيتنا في هذه القضية والابتعاد بها عن العصبية، بل يمكننا أن نصف الأدب ذا الخصائص الإسلامية الذي يصدر عن غير المسلمين بالأدب الموافق، وهي فكرة طيبة تسير ساحة الإسلام وتوجهه لكل البشر، وكونه خاتم الأديان.

وهناك من يريد تسميته «بالأدب المسلم» راثياً أنه بتلك الصفة «المسلم»

نُور الفجر

لشاعر الأردنية شيخ محمد إبراهيم ذوق
(١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م - ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م)

ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم

ولد «شيخ محمد إبراهيم ذوق» سنة ١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م، وبدأ تعليمه في أحد الكتاتيب بمدينة دهلي في الهند، ظهرت موهبته الشعرية في فترة مبكرة من حياته، وقام بمراجعة أشعار الامبراطور بهادر شاه ظفر آخر سلاطين الدولة المغولية في الهند وتنقيحها، ولقب ذوق بملك الشعراء وخاقاني الهند. ويقال إنه ترك أشعاراً كثيرة ضاع معظمها أثناء الثورة التي قامت ضد الانجليز، فقام تلميذاه «محمد حسين آزاد» و«حافظ غلام رسول ويران» بجمع بعض أشعاره، وترتيب ديوانه الذي ضم ١٢٠٠ بيت من الشعر، منها ١٥ قصيدة ومثنوي «مزدوج» غير كامل.

كان «ذوق» شاعراً حساساً، اتصف بالورع والتقوى، وأحب اللغة الأردنية حباً ملك عليه مشاعره وأحاسيسه، فجاءت أشعاره رائعة، خاطب فيها الإنسانية جمعاء، وعبر فيها عن زمانه بصدق، فجاءت أشعاره مرآة لعصره، وقد استخدم الشاعر الرمز في شعره للوصول إلى هدفه، وهذه ترجمة لقصيدة جعلنا عنوانها «نور الفجر» فالشاعر بعد أن كاد اليأس أن يحطمه أنقذه صوت أذان الفجر فذكره بربه وبرسوله الكريم، فعاد إليه الأمل والرجاء، وملاً نور الإيمان قلبه.

نور الفجر

ماذا أقول - يا ذوق - عن

أحوال ليالي الهجر؟

ليالٍ لحظاتها مرت

كأنها مائة شهرٍ من بعد شهر

ليلةً، واحدةً، لم تمض دون

أن تُظْلَمَها

ظلمةٌ حظي الأسود

بالسوادِ والقهر

وشموعي حظُّها من الحزن

لم يكن بقليلٍ

فتساقطت حباتٌ عَرَقَها

ومضت كالنهر

ورحْتُ أرْدُدُ فزعاً

وأَتَطَلَّعُ للأفلاكِ

كغريقٍ في بحر:

أين أنا؟ وأين أمنيائي

التي كانت؟

هل ضاعت بعد أن ملأ

الحقْدُ قلبك

ضاعت كالبحر

في ستارةِ الظلمةِ قسوتِ عليّ

ولم يَدْرُ أحدٌ بالأمر

لكن قلوب أهل الحي

تقطعت

من ضجيجِ دقاتِ قلبي

وراح يقيمني حيناً اضطرابي
ويُقعدي حيناً ضعفي
قال حين أصاب القلب ما أصاب:
آه؟ كم من إسارٍ حطّم الماس؟!..
قالُ الروح لم يتحطّم يوماً بوصلٍ
بينما الفراق أضاع الروحَ
دونَ طعنة نَصَلٍ
رأيتُ ورأيتُ ولكن لم أر
ولو للحظةٍ طلوع الصباح
من طلعت البهية
فحدّثني القلبُ وقال:
هذا ليلُ الهجرِ
ويقيناً
لن تبقى أنفاسُك للفجرِ
وهكذا
رُحّت ألعقُ دموعَ الأسى
وأرتشف الحزن
وجلست
أكفكفُ الجراحَ
وأطلّع حواليَ
لعلّي أجد من يحملُ المصباحَ
من يرتّل لي «سورة يس»
حتّى تخرج الروح في سكون
دون نواحٍ
أطلّع حواليَ، أتساءلُ:
ألا يزالُ في العمر بقيّة؟!

ثم كانت الإرادة الإلهية
أبقّنتني على قيد الحياة
ربّي كتب لي النجاة
إذ فجأةً تناهى لأسماعي
صوتُ مؤذنٍ
يُكبّر، يُردّد
حيّ على الصلاة
في بيتٍ من بيوت الرحمن
يا لله
بشارةً صبح الوصلِ
واتّنتي
فعانقتني الفرحةُ
والدنيا بذراعيها ضمّنتني
يا لها من سعادةٍ
حين يصدح صوتُ بـ «الله أكبر»
فها هو ذا طربُ السرورِ يُناديني:
تفكّر... تفكّر..
ما أسعدك أيها المؤذن
فقد رفعت في الوقت المناسب
النِّداء الربّانيَ
فأنقذتني من همي وأشجاني
صوتُك العذبُ حمل لي
صورة مكة والمدينة
فأيقظني من غفلي
وأحياني